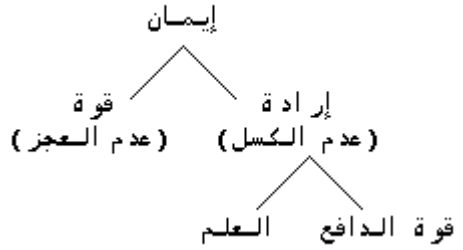

صـ

٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. وفي كل خير. احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا لم يصبني كذا. ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل. فإن لو تفتح عمل الشيطان**»

رواه مسلم، كتاب القدر

١١ «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. وفي كل خير**»

١

١٢ الإيمان هو الوجود بشقيه: الشهادة والغيب، فيكون الإيمان صحيحًا إذا وافق هذا الوجود، ويكون باطلًا إذا كان على خلافه، ويكون ناقصًا إذا غابت عنه بعض حقائقه.

٢

لتحقيق إرادة الفعل لا بد من القوة، فحين تكون الحقيقة الإيمانية عملًا من الأعمال فإن «الإيمان» بهذه الحقيقة لا يكون تامًا إلا بإيقاعها، ولوجودها لا بد من قوة قادرة على تحقيقها وإلا كان غيابها سببًا في غياب جزء من أجزاء الإيمان اللازمة لوجود حقيقته.

١٣ الأحكام الشرعية معلقة على الأسماء فأي فساد يلحق في مفهوم الاسم سيلحق في الحكم بعد ذلك.

٣

الفعل إنما يقع بإرادة وقوة، والإرادة فعل القلب، والقوة فعل البدن وما معه من أدوات يستعين بها.

٤

غياب الإرادة يعني الكسل، وغياب الأداء «القوة» يعني العجز.

٥

وغياب الإرادة له أسباب متعددة منها الجهل بشقيه؛ غياب العلم، وغياب الدافع.

٦

١٤ هل القوة من الإيمان أم أمر زائد عليه؟ [منه]

١٥ من أساليب العرب ذكر بعض الأجزاء مع الأصل تنبيهًا لأهميتها، كما قال تعالى ﴿**ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء**﴾ الحج

المؤمن بإرادته وقوله إن غابت عنه قوة الفعل كان أضعف إيمانًا من المؤمن بإرادته وقوله وفعله لما معه من قدرة عليه.

١٦ فالضعيف لا يدرك إيمان القوي، حتى لو أدرك الأجر بالنية.

٧

١٧ تقدم أن القوة غير الإرادة؛ لأن غياب الإرادة كسل وهو غياب لاسم الإيمان الممدوح، فلا يقال لمن كسلت إرادته عن الطاعات أنه مؤمن ضعيف، بل هذا قد غاب عنه الإيمان ووصفه، فلا مدح له،..

دخول الإرادة في اسم الإيمان أولى من دخولها في اسم القوة حين اجتماع اسم القوة والإيمان معًا.

٨

القوة إذن أمر ظاهر.

١٨ قوله صلى الله عليه وسلم «**ألا إن القوة الرمي**» إذ اجتمع مع قوله صلى الله عليه وسلم «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**» كان ذلك اجتماع أعظم قوة مع خير آلة في هذا الباب..

وأَخذُ أعدائنا بهاتين القوتين وخاصة قوة الرمي بالطيران والصواريخ هو ما يحقق لهم الغلبة في كثير من المواطن.

٩

إذا فهم المسلم هذا الأمر وهو أن القوة من الإيمان، وأن الفعل لا يقع إلا بقوة كافية استطاع أن يفهم كيفية تحقق الوعود الإلهية في القرآن الكريم التي ربطت بالإيمان..

١٩ قوله تعالى ﴿**ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا**﴾ معلوم من وقائع الحياة والتاريخ أن الكافر قد يتغلب على المؤمن، وهذا التغلب سببه ضعف المؤمن وقوة الكافر، فدل هذا أن وصف الإيمان هنا هو إيمان الفعل، وهو ها هنا إيمان الجهاد الذي يملك القدرة على الغلبة والظفر على عدوه، ولذلك عد بعض أهل العلم هذه الآية أمرًا لا خبرًا، وإن كانت بصيغة الخبر..

١٠

فدل كل هذا أن الفكر إيمان والنظر إيمان، كما أن القوة إيمان، وامتلاك أدوات الفعل إيمان..

٢٠ كما أن من أساليب الفعل الدعاء والاستغاثة والتوكل واليقين، وهي أسباب شرعية قدرية، وضعفاء المسلمين هم أقرب من غيرهم في هذا الباب.. وهذا المعنى يشبه قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث «وفي كل خير».

٢١ قوله تعالى ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾، إنما معناه أن يغيروا قواهم واتجاهها، فلا بد من تغير عالم الوعي والنظر، وكذلك لا بد من تغير القوة حتى تعادل الوجود المتغير..

١١

٢٢ وكما أن الإيمان يزيد وينقص، والقوة جزء من أجزاء الإيمان فهي تزيد وتنقص، وهي في زيادتها ونقصانها قد تكون في مقابل شيء ثابت أو مقابل شيء متغير نسبي، فالقوة للصلاة في الأغلب وفي الظروف العادية تكون شيئًا ثابتًا، وكذلك الصيام، لكن إن كانت مقابل شيء متغير فإنها تكون فإنها تكون نسبية كذلك، فما كانت قوة متكافئة للفعل في زمن ما قد لا تكون متكافئة في زمن آخر، وذلك لتغير قوة المقابل، وبهذا يكون الابتلاء الرباني للأمة المكلفة بالعزة، لأن العزة كما تقدم تكليف.

١٢

٢٣ العجز الذي يصيب الأمم قد يكون طارئًا لظرف داهم، كأن تكلف الأمة بالعزة والاستعلاء وهي ضعيفة في ظرفها من حصول هذا، فهذا عجز داهم، هذا كان شأن الصحابة في مكة المكرمة، وقد سعوا زمانًا حتى زال هذا العجز عن طريق الإدراة والفعل في الاتجاه الصحيح لتحصيل القوة..

ولكن قد يكون العجز سببه كسل عن حماية مكاسب القوة في البناء الحضاري القائم، أو طروء مذاهب باطلة تدمر إرادة الاندفاع في مكافئة المقابل المطلوب..

وقع الكسل والترف والارتداد نحو الداخل والصراع فيه، ثم غزت المذاهب الباطلة القيادات العلمية الحامية لإطار الأمة وبنيانها، فصار الكسل عجزًا، حيث غابت القوة..

٢٤ لقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حال الأمة في الغربة الثانية، وقال «..**غثاء كغثاء السيل**»، فإن كانت الغربة الأولى تعاني قلة الأتباع، وهو سبب من أسباب العزة، فحيث كثر الأتباع حصلت بهم القوة، لكن الغربة الثانية ليست منوطة بالقلة أبدًا، إنما هي منوطة بأمر آخر، وهو غياب فاعلية هذه الأعداد، وهذا دليل أن الكثرة ليست قوة في ذاتها إلا على معنى معين. فهذه الكثرة «غثاء»، والغثاء صفته غياب الإرادة والتأثير، بل هو متأثر قابل، تحركه الأمواج التي تسير تحته..

ما الذي ينقص الأعداد لتحقيق الفاعلية؟

١٣

إن هذا البناء لا يكون إلا ضمن الصراع مع الآخر، وهو صراع وجودي، لا يكون أحدهما قاهرًا باهرًا إلا بإزالة الآخر عن القيادة والتأثير والقهر.

والفاعلية ليست مشاركة للآخر في البناء، ولا تفعيل وجودك ضمن سلطان الآخر كما يريدها بعض النوكى[١]، وهذا إن قبل من بعض مذاهب البشر الضالة لا تملك وعودًا ربانية نؤمن بها فإن هذا في الإسلام غير مقبول وضلال، ولا يمكن انسجامه مع الإسلام إلا بتزوير سمة الإسلام وإلغاء استعلائه وعزته، فإن وقع هذا لم يكن إسلامًا قط.

١٤

٢٥ إنما الفاعلية التي ينشدها الإسلام لأهله هي فاعلية العزة والاستعلاء والتميز، وهذه لا تبنى إلا من خلال علم سليم يوافق الحق، والعلم هو إحدى مكونات الإرادة، كما أن قوة الباعث هو المكون الآخر لها.

١٥

ولا بد كذلك من قوة تنمو بطريقة سننية، يكون كل عدد فيها ولو قليل خروجٌ عن سلطان الآخر ومنارع له، ولذلك كان سمة الأنبياء في بناء أفرادهم على هذا المعنى هو حصول الهجرة، وهي في معناها العام تعني التميز والبناء بعيدًا عن سلطان الآخر، وهذا إن كان ممنوع الحصول في ظروف فيمكن تحققه من خلال فعل موسى وهارون عليهما السلام مع قومهما في مصر تحت سلطان فرعون القاهر، كما قال تعالى عنهما ﴿**وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتًا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين**﴾

١٦

هذا الغثاء يحتاج إلى إدارك واقعه أولًا؛ أي أنه ألعوبة بيد الآخر، فهو ما دام في مجرى النهر الجاهلي يتحرك في أطره وبين شطيه فهو مجرد غثاء لا قيمة له، وهذا هو واقع الأحزاب السياسية الإسلامية، وهو واقع المؤسسات الاجتماعية الإسلامية التي تعمل ضمن خطة الجاهلية، ومن غير إدراك المريض لمرضه فإنه لن يخرج من غثائيته قط..

٢٦ على هذا الغثاء أن يخرج من التيار الفاعل ليبني قوته خارج إطاره، ومن خلال مسيرة الصراع..

١٧

ما فائدة فصل الإيمان عن القوة في هذا الحديث؟

٢٧ إنها دعوة لهذا المجتمع أن يكون الأقوياء فيه هم الأكثرون، وأن ينزع الضعفاء إلى تحصيل القوة تحت مظلة السبق إلى محبة الله ورضوانه، لا من أجل العلو بالباطل والتفاخر بالدنيا.

٢٨ لا يجوز لأحد أن يحتج بالقدر على عجزه وكسله ، ولا على معصيته، والاحتجاج بالقدر هو فعل أهل الضلال كما قال تعالى ﴿**وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين**﴾، فهؤلاء المجرمون احتجوا بالقدر على ترك الصدقة، مع أنهم يدفعون عن أنفسهم أقدار المرض والفقر بما استطاعوا من قوة، لكن لما كان أمر الصدقة خلاف ما يحبون فرفضوه بهذه الحجة الشيطانية.

٣٣ من التعدي في الدعاء والجهل بسنن الله في الخلق أن يسأل المرء ربه وهو قاعد، أو سالك غير السبيل الموصل لطلبه، كما هو شأن عامة المسلمين اليوم، إذ تراهم في المساجد والجُمعات والمواقف والمواقف يلحون في الدعاء بالنصر وهزيمة الأعداء، وهم في حياتهم لا يعملون لهذا، لا خطيبهم ولا مستمعهم..

١٨

أكثر الناس لعدم فهمهم لهذه الحياة وجهلهم بسنن الواقع يتركون الفعل للكسل في واقع الأمر، ولكنهم لإبعاد شبهة التهمة عن إرادتهم وقلوبهم فإنهم يذهبون إلى اتهام الواقع فيتركون الفعل ويزعمون أن سبب الترك هو العجز، والحق أن تركهم للفعل سببه الكسل.

وقد تقدم أن العجز غياب القوة، وقد توجد الإدراة وقد تغيب، لكن الكسل جزمًا هو غياب الإدراة،

١٩

كما علم أن عجز اليوم منشؤه في الأمم هو كسل الأمس..

٣٤ ففي الحديث دفع للمرء أن يقوم إلى الفعل، وهو في أحواله يملك القوة لبدايته، والبدايات تحتاج إلى قوة أقل من الأثناء والانتهاء..

٢٠

قوله «**لا تعجز**» إبعاد لقيمة القوة الكبيرة في البدايات..

«**لا تعجز**» دفع لشرط القوة التي يشترطها الجهلة والأغبياء في البدايات..

---

[١] نوك: النون والواو والكاف كلمة واحدة هي النواكة والنوك وهي الحمق ورجل أنوك ومستنوك وهم نوكى (مقاييس اللغة)

٢١

٣٥ **«وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا لم يصبني كذا. ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل. فإن لو تفتح عمل الشيطان»**

هذا الحديث ليس فيه قط النهي عن مناقشة التجارب السابقة والنظر في أسباب إخفاقها وضعفها، بل هو نهي عن الرجم بالغيب في أمور لم تقع كيف ستكون لو وقعت.

٣٦ ذلك لأن كل فعل له ظرف يحيط به، والظرف قد يكون من فعلك وصناعتك، وقد يكون من فعل غيرك وصناعته وهو الأغلب.

٣٨ المؤمن لا ينبغي أن يعيب على مخالفه إن كان في فعله أثرٌ عليه، بشرط أن لا يكون هذا الأثر مربوط من جهة الشرع مع الفعل، أو لا يكون أثرًا ملازمًا للفعل على وجه السنن وجريانها.. ومثال ذلك ما لو اشترك في طريق فرأى أحدهما معصية فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فجاش الناس ضدهما كأن يقتلا أو يسجنا أو يطردا، فلا يجوز للمصاب الساكت أن يعيب على القائل بالحق بحجة لحوق آثار بلاء عليه، وعدم فقه هذه القاعدة في المعاصرين جرهم إلى كلام ضلال يقولونه ضد القائمين بالحق من المؤمنين والمجاهدين..

٤٠ يكون الخوف من النتائج عند الكثيرين سببًا يمنع إقدامهم فيحرمهم من التقدم وتحقيق المصالح، وخاصة حين تسبق الإنسان تجارب لم تحقق النتيجة..

٢٢

فجاءت آيات سورة الكهف في شأن موسى والخضر عليهما السلام لتعلم النبي صلى الله عليه وسلم وأمته أن الحياة لا تقوم على الظواهر فقط في باب الهداية والنصر والتأييد..

٢٣

٤٥ البشر كلهم على اتفاق فطري أن القتال والمدافعة والمنازعة هي التي ترفع الأمة من الذل إلى العزة حين تكون الذلة بقهر طاغوت أو محتل، وهو أمر لا خلاف فيه في عالم البشر الأسوياء، لكن بعضهم يدعوك للصبر حتى يموت الطاغوت أو المحتل، وبعضهم يريد منك أن تأخذ بشطر الموعظة النبوية **«استعن بالله»** دون قوله **«ولا تعجز»**

لكن لما كان قادة الأمة من فقهاء العصر يعلقون الأحكام على مناطات باطلة كالأسماء أو الألوان أو الصور أو الأنساب التاريخية فإن حيل هذا البديل تنطلي عليهم، ثم يزيد الأمر سوءًا أن يصبح بين الطرفين حالة استمتاع، أي بين الظالم والمظلوم، وبين الإله الباطل والتابع الجاهل وهي أشد ما يصيب الأمم، كما قال تعالى عن هذه الصورة ﴿**ويوم يحشرهم جميعًا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم**﴾

٤٧ **الخاتمة**

إن هذا الفقه العظيم حرب على فقه الركون والسكون والتثبيط في أي باب من أبواب الحياة، وهو حرب على فقه قبول الأمر الواقع وترك منازعته ومدافعته، وهو رفع لإرادة المرء المسلم إلى معالي الأمور وأعلاها وأنفعها لنفسه وللوجود، وفيه تتحقق الصناعة الربانية للمرء المسلم أن ينازع الجبال ولا يخشاها، وأن يخوض المجاهيل ولا يرهبها، وأن يقتحم الغد ولا يخشى الفشل أو الإخفاق.

إن دعوة نبوية أن الإخفاق في تجربة لا يبعث يأسًا، ولا تثبيط همة، بل يزيد السالك إصرارًا أن يعود مرة بعد مرة.

إن ما يلزمك للذهاب بعيدًا في تحقيق أعلى الأمور هو أن تعلم سنن الحياة كما هي دون أوهام أو أساطير، بأن تقرأ التاريخ جيدًا حتى تعلم ما هو الذي يحقق النفع للوجود، وما هو الذي يغير مسارات الحياة، وما هو الذي يحيي الأمم وشعوبها فتحرص على ذلك كله، ثم أن تضع رجلك على الجادة السليمة مستعينًا بالله، ثم لا عليك من كل الموانع فإن وجودها قدر كل الوجود، إذ لا يوجد في الوجود هدف بلا موانع ومشاق، بل استعن بالله وذلك بالتوكل القلبي، والثقة بالوعود الإلهية وبالأخذ بالسنن الربانية والتي هي أوامر يجب اتباعها، فإن حصل المطلوب فهو ما تحب ويحب الله لك، وإن كانت الأخرى فلا تخاف العار ولا الإثم ولا تستمع لكل أولئك الأخباث الشياطين ممن جلسوا على شاطئ الهوان والكسل والبطالة، وكفى بهذا الاسم – أي الباطل – عارًا أنه يعني الفراغ والذهاب، وهم كذلك في فراغ من عمل جاد، وفي ذهاب إلى اللاشيء..

٤٨ دعك من «لو» هذه فإنها لم تقل يومًا من زاعم حكمة وتجربة إلا وهو يخفي تحتها قصد ترك الطريق والركون للهوان والبطالة، وهم يقولونها سترًا وتعمية لما بيّتوا في أنفسهم، ولكن التحاقهم بركب الشيطان علمهم أن يسلكوا سبيلهم في السير إلى مرادهم خطوات لا دفعة واحدة، تهوينًا للجرم الذي بيتوا أنفسهم للوصول إليه.

٢٤

٤٩ لقد نهانا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم من قول «لو» حتى لو أخفقنا ولم يكن ما نحب ويحب المؤمنون فكيف بمن يريد أن يقولها والناس في البدايات وفي معمعة الطريق، ثم ما هو دين هذا المرء الذي يجعل باب فتحها طريقًا لقلب الحق باطلًا والإيمان كفرًا والعمل لدين الله تعالى عارًا يعتذر منه؟!!

اللهم غفرانك لا كفرانك، وإنا نسألك وأنت الرحيم السداد والرشد والقوة، وأن تختم لنا هذه الحياة وعلى أقدامنا غبار الطريق غير مبدلين ولا ناكصين ولا يائسين. آمين.. أمين..

[بحمد الله تم الفراغ منه فجر الجمعة التاسع من ربيع الثاني لعام ١٤٣٣]